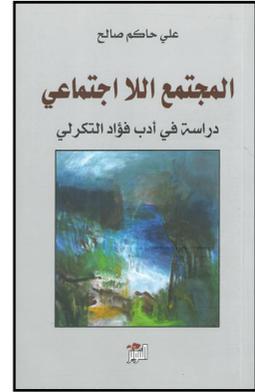


المجتمع اللااجتماعي  
دراسة في أدب فؤاد التكرلي  
علي حاكم صالح  
(دار التنوير)

الناقد الذي كتب هذا الكتاب والروائي الذي دُرست رواياته درساً خاصاً يتشارك هنا رؤية واحدة ومزاجاً واحداً. ففي عصر يعجّ بالروايات العربية التي تعسر ملاحظتها كلها، ينتخب علي حاكم صالح روايات فؤاد التكرلي لغاية خاصة في نفسه. فهو يوجّه عبرها، في كتابة تحليلية تليق بمجتمع لا اجتماعي، بصقةً أخرى في وجه الحياة، بعد أن فعل ذلك فؤاد التكرلي نفسه قبل نصف قرن في رواياته «بصقة في وجه الحياة» المنشورة في العام ٢٠٠٠. ومن المؤكد أن بصقة الرواية غيرها بصقة الكتابة النقدية. هذا الوضع يثير سؤالين محدّدين؛ الأول: ألم يتغيّر ذلك المجتمع اللااجتماعي عبر نصف قرن من الزمان؟ والثاني: ألم يكن نفي الكاتب نفسه، طوعاً أو كرهاً، نوعاً من الحلّ للخلاص من المجتمع اللااجتماعي؟ إن الكتابة الروائية التكرلية هي «كتابة انتهاكية»، لكنها أيضاً «ترياق»، والكتابة النقدية لدى علي حاكم صالح كتابة تحليلية، وهي أيضاً ترياق. وحين أنقذت الكتابة الروائية صانعها الروائي من مجتمعه اللااجتماعي في خمسينيات بغداد القاسية، أنقذت الكتابة النقدية صانعها الناقد فكتب وهو في خضمّ مجتمع العراق الغاطس في اللااجتماعية حدّ الجنون، مجتمع تشظّي نسيجه المتهرّئ أشدّ التشظّي، وتحول من مجتمع الارتياب الخائف والتفسيخ المطليّ بطلاء الانسجام إلى مجتمع الكراهية الصارخة والعفونة البادية، مجتمع عراق ما بعد سقوط الدكتاتورية وكشف المكبوت والمكتوم من «طبيعة المجتمع العراقي». فالذي دفع الروائي التكرلي إلى موقفه ذلك، والذي

الجديد في التحليلات النقدية التي يكتبها علي حاكم صالح في كتاب المجتمع اللااجتماعي: دراسة في أدب فؤاد التكرلي، هو أنه يدخل إلى عالم الرواية كشخصية من شخصياتها. وهنا يؤسس لعلاقة جديدة بين الناقد



والنص والروائي الذي يعالجه ويعالج به مشكلات محدّدة، فكرية واجتماعية، وهذه العلاقة بالنص الروائي تتأسس حين يصبح الناقد إحدى شخصيات الرواية التي يدرسها. يسعى علي حاكم صالح في هذا الكتاب إلى التماهي بشخصيات الروايات التي يدرسها، ومدخله هو أن تكون هذه الشخصية أو تلك من شخصيات الروايات، فهو يدخل في الرواية لينتج نصّه النقدي المتماهي بالنصّ الروائي، وليس المتعالي عليه، وهذا ما جعل حضور روايات فؤاد التكرلي طاعياً على استشارة الناقد مصادر أخرى تخصّ بحوثه النقدية، إذ ليس غير أحد عشر مصدراً ذيل بها قائمة مصادره، لماذا؟ لأن مصادر بحثه الحقيقية موجودة في الروايات بما أنه أصبح إحدى شخصياتها.

العراقي.

لكن ثمة جانباً تجدر الإشارة إليه في سبيل هذه التوسعة في نقد المجتمع؛ توسعة الناقد على الروائي، فعلي حاكم صالح يُحجم أحياناً، في خضمّ تحليلاته وانهمامه في الحفر في عالم التكرلي ورواياته، يُحجم عن توجيه الخطاب مباشرة إلى المجتمع العراقي تحديداً. وإذا كان التكرلي يكتب رواية يحضر فيها مجتمعٌ لا مسمّى، فمن الواضح أن الروائي يمتح من مخزونه الاجتماعي الخاص، وهو العراقي بالبديهة، لكن الناقد يودّ أحياناً أن يجرد المجتمع من نسبته، صفته، وقائعيته، ربما نشداناً لمفهوم أشمل يطوي تحت فضائه تلك المجتمعات المتبلاة بالألاجتماعية.

لا يفوّت الكتاب فرصة الاستغراق في المشكلات المزمّنة للمجتمع العراقي، وهذا جانب نافع وممتع فيه. فالمؤلف لا يني، مصحوباً بالماعات وتفاصيل وحوادث ومشاهد روائية، من تحويل ذلك إلى تحليل لمشكلات المجتمع العراقي. وربما يكون الدافع وراء تلك التحليلات والانهماك فيها ليس فقط الشروع ببحث المشكلات الاجتماعية التي لها جذور راسخة في مجتمعنا، بل في تلطيف حياة الكائن الإنساني التي وجد نفسه في خضمّها. وعلي حاكم صالح يشبه التكرلي في هذا الصدد، لأن في كتابته النقدية إعلاناً عن لجوء إلى الفكر لمواجهة المشكلات ومعالجتها ومعالجة النفس في الآن نفسه. يوظّف علي حاكم صالح معارفه الحديثة في تحليل الرواية في عمله هذا، تلك المعارف التي عمّق بها تناوله لروايات التكرلي، فقد تشبّع بها عبر ترجماته

شكّل أزمته الروحية هو عينه ما عاشه الناقد وشكّل أزمته الروحية: «حرمان، واستلاب، وقهر، وكبت اجتماعي وسياسي»، وإذا كانت الثمرة الوحيدة التي جناها الروائي من كتابة عمله «بصقة في وجه الحياة» إبان الخمسينيات، حين قرر عدم نشره، هي «حفظ توازن شخصية كاتبه»، فإن علي حاكم حفظ توازن شخصيته في كتابته النقدية أيضاً.

إن الروايات المتميزة التي كتبها فؤاد التكرلي تعكس، بفنّ وبحقّ، أوضاع المجتمع العراقي في حقبة متعددة، وتعكس آراء التكرلي في هذا المجتمع، وقد وجدت تلك الآراء نظائر لها في البصائر النقدية للناقد عن مجتمعه العراقي. وما من حاجة لبينة على شغف الناقد بنصوص الروائي، وعدّها ناطقة بما يعتمل في نفسه، لكنه وجدها غير كافية لأن يقول المرء كل ما يريد قوله عن المجتمع العراقي، فعمد إلى استكمال مشروع التكرلي في نقد المجتمع. ورغم «الكفاية الفنية» في روايات التكرلي، سعى علي حاكم صالح إلى تحقيق «الكفاية النقدية» عبر كتابة هذا الكتاب الذي هو بمقدار ما يقترب من النصوص الروائية التكرلية يوسّعها دلالةً، ويمنحها إشراقاً تذكّر بأصالتها وبصمتها الفريدة، وهو يدقّ، وهذا هو الأخطر، ناقوساً ظنّ العراقيون أنه دقّ على نحو كافٍ فيما يتعلق بعيش المجتمع العراقي على شفير دائم الوجود، شفير حرب أو نزاع أو حتى شفير جهنّم. إنها الحافة يطلّ منها كل من الروائي التكرلي وقارئ الروايات علي حاكم صالح متفرّسين في الدماء والعنف والظلم والفقر والنفاق؛ اختصاراً في المجتمع

أخرى، وهي مثل الناقد الذي تمّرس في شخصيات روايات التكرلي ليظهر لنا لا اجتماعية المجتمع مركّبة روائياً مرّةً ومتجسّدة في الواقع المرّ الذي عاشه.

قراءة حسن ناظم

لكتب في نظرية الأدب ونظرية القراءة والتلقي، وهي كتب باتت معروفة. ففي الكتابين الأساسيين الشاملين عن نظرية القراءة والتلقي (نقد استجابة القارئ، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩، والقارئ في النصّ، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٧) نجد معظم نظريات ومفاهيم القراءة والتلقي الغربي. وهي على اختلافها صنعت من تعاشها في ذهن مترجمها علي حاكم صالح ملكة نقدية وخبرة في سبر أغوار النصّ الروائي عبر ذات قارئة تدرّبت على أيدي أساتذة هذا الفنّ في القراءة. ولعلّ الشاهد الأساسي والبارز على ذلك معالجته لرواية التكرلي «المسرّات والأوجاع» في الفصل الرابع من كتابه هذا، حين عمد إلى معالجة تستثمر قراءاته وترجماته في نظرية القراءة والتلقي التي تماهى بها كلّ المماهة، فعبّر نورماند هولاند وفولفغانغ آيزر وديفيد بليتس وآخرين من منظري القراءة والتلقي، حفر درباً في مسلك صعب من مسالك رواية التكرلي، وأطلعنا على هواجس الشخصيات الفريدة في الروايات، مثل تلك التي دأبت على قراءة الروايات العالمية، وعلى التفاعل معها بطريقة تؤثر مباشرة في حياتها. وهذه الشخصية الأساسية، مثل علي حاكم صالح، تجد في الروايات وقراءتها مرات عديدة معاني عديدة، تتعدّد وتتنوّع في الرواية الواحدة عبر القراءات المتعدّدة. وهكذا قرأ بطل التكرلي توفيق سانين، دكتور جيفاكو، الجريمة والعقاب، الحرب والسلام، الأحمر والأسود، ثلاثية نجيب محفوظ، أيام طه حسين، إلخ وهكذا كانت الشخصية التي يدرسها الناقد تركيباً من شخصيات روائية